الإسلام والعقلانية [1]

من القضايا التى كثر الجدل حولها : « علاقة الإسلام بالعقل » .. فقد ظهر تيّار فكرى يحمل لواء العقلانية . ويدافع عنها .. ويجعل من العقل حاكماً .. لا يرد حكمه .. وانقسم حملة هذا اللواء فريقين فى ظاهر الأمر أمام الدين عامة .. وأمام الإسلام على وجه الخصوص :

الفريق الأول .. رفض الدين .. رفضاً تاماً .. واتهم الفكر الدينى بأنه فكر ديماجوجى .. معطل للعقل قائم على الخرافة ..

والفريق الثانى .. تعامل مع الدين ولكن مقرراً أن العقل هو الحَكَم الفصل فى قضايا الدين .. وأنه إذا تعارض النص مع العقل وجب إخضاع النص للعقل .. مهما كان النص قطعى الدلالة والثبوت .

وكان علينا ونحن نستفتح هذا الملحق الدينى الأسبوعى .. أن نضع هذه القضية فى مقدمة القضايا الفكرية الإسلامية التى سنتناولها بإذن الله تعالى .

وكانت لنا تساؤلات حول العقلانية .. طرحناها على ضيوفنا ..

سألناهم عن علاقة الإسلام بالعقل والعقلانية .. ؟

وبماذا نبرر موقف دعاة العقلانية من الدين .. ؟

وعن المناطق التى يجب على العقل ألا يرتادها بمفرده حتى لا يهلك ؟ . وكيف نوائم بين جنوح العقل وحكمة الشرع .. ؟

وقد طرحنا القضية على فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى الذى تفضل ببيان أبعادها وإبراز كل جوانبها .. فقال :

---

(١) نُشرت بجريدة « القطرية » بتاريخ ٥ يونيه سنة ١٩٨٩ . أدار هذا الحوار الصحفى الأديب الشاعر . د . رشدى إبراهيم .

« لا ينبغى أن تُترك هذه الألفاظ هلامية مائعة رجراجة غير محددة الدلالة يستخدمها كل فريق فيما يؤيد مذهبه ووجهته وفلسفته فى الحياة فينبغى أن يحدد المراد ..

فالعقل وما يُشتق منه كلمة محببة للإنسان ، لكن قد يفسرها بعضهم تفسيراً غير مقبول ..

وما المراد بالعقلانية .. ؟

العقلانية مصدر صناعى موجود فى اللغة العربية زيدت فيه الألف والنون كالعلمانية .. وهى مشتقة من مادة العقل ، ونحن المسلمين أولى الناس بتمجيد العقل وما يتفرع منه وما يصدره هذا العقل إذا استخدم العقل فى مجاله وبحدوده وضوابطه .

● أعظم قضيتين :

بل علماؤنا المحققون يقولون إن العقل عندنا أساس النقل ؛ ومعنى هذا أننا نقيم النقل على أساس العقل ؛ لأن العقل هو الذى يثبت لنا أعظم قضيتين من قضايا الدين ..

القضية الأولى : قضية وجود اللّه سبحانه وتعالى ، فهذه لا يمكن الدليل عليها من الوحى ولا من النقل .. إذا جادلنى مادى أو شيوعى ملحد عن وجود اللّه لا أقول له : قال اللّه تعالى وقال الرسول ، لأنه لا يؤمن باللّه ولا بالرسول .. كيف أخاطبه بقول الرسول وهو لا يؤمن بالمرسِل نفسه .. لا بد أن أبحث معه القضية من جذورها بحثاً عقلياً فأقيم له الدليل على وجود اللّه بالعقل ، وهذا ما يؤيده القرآن نفسه ، لأن القرآن ذكر أدلة عقلية صرفة على وجود اللّه سبحانه وتعالى فى مناقشته للمشركين والجاحدين من مثل قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ، بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [1] » .

---

(١) الطور : ٣٥ - ٣٦

ومضى فضيلة الدكتور القرضاوى يقول :

« فقضية إثبات الوجود الإلٰهى قضية عقلية .. صحيح هى قضية فطرية أيضاً .. هى غريزة فِطرية وضرورة عقلية .. لا نستطيع أن نفسر الكون وما فيه من حياة وما فيه من إبداع وما فيه من تنظيم إن لم نقل بوجود إله خالق ومنظم ومبدع وراء هذه المخلوقات .. قانون العلّية أو السببية قانون فِطرى يجعلنا نقول لا بد أن وراء الصنعة صانعاً ووراء التنظيم منظماً ووراء الحركة محركاً وهو ما عبَّر عنه الأعرابى حينما قال : « البعرة تدل على البعير وأثر السير يدل على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ؟ أفلا يدل ذلك على العلى القدير » .

من أجل هذا نقول إن وجود اللّه سبحانه وتعالى دليله العقل » ..

*

● القضية الثانية إثبات النبوة :

وأضاف فضيلته : « ثم هناك قضية بعد ذلك بعد أن نثبت أن هناك إلٰهاً وربّاً له صفات الكما ، هذا الرب العظيم الأعلى من حكمته ورحمته أنه لم يدع خلقه هملاً ولم يتركهم سدى ولم يخلقهم عبثاً ، بل أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على اللّه حُجَّة بعد الرسل .. كيف يثبت إمكان الوحى ووقوع الوحى بالفعل ووجود الرسل وأن فلاناً هذا رسول مؤيَّد من عند اللّه .. هذه قضية عقلية ، فلا تستطيع أن تثبت الوحى بنفسه لأن هذا دور .. وهذا باطل . إذن لا بد أن تقيم الدليل على ثبوت الوحى بالعقل .. فثبوت النبوَّة .. والرسالة لرسول معين .. كيف نثبتها .. ؟ كيف نثبت نبوَّة محمد ﷺ ؟ نثبتها بالعقل .

فاللّه أظهر على يديه من الآيات والبيِّنات ما يقطع بأنه لا يتكلم من عند نفسه ، ولا يمثل إرادته بل يمثل الإرادة الإلهية .. وتلك هى المعجزة ..

ولذا قال علماؤنا : دلالة المعجزة على صدق الرسول دلالة عقلية ، فالقرآن دلالته على صدق محمد ﷺ دلالة عقلية .

فإذن القضيتان الكبيرتان : قضية وجود الله وقضية إثبات النبوّة ، هاتان قضيتان عقليتان ومن هنا قال علماؤنا : العقل أساس النقل » .

* *

● القرآن يمجد العقل :

واستطرد فضيلة الدكتور القرضاوى قائلاً : « نحن إذن - نحن المسلمين - لا نخاف من العقل ، بالعكس نحن نرحب بالعقل ولا يوجد فى الدنيا كتاب أشاد بالعقل ونوّه به مثل القرآن الكريم .

لا يوجد كتاب دينى فيه تمجيد لأُولى الألباب .. ستّ عشرة آية فى القرآن الكريم تتكلم عن أُولى الألباب .. وهناك أحاديث عن أُولى النُهَى وذى حجر ، ومادة : « عقل - يعقل - يعقلون » موجودة فى القرآن بكثرة .. ثم الحديث عن الحُجّة وعن السلطان وعن البرهان فى القرآن الكريم .. القرآن حافل بمثل هذا .. الكتاب الذى يقول للناس : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .. قل هاتوا برهانكم : أى أن أىّ قضية لا تقبل بغير برهان . ولذلك نجد القرآن ينشئ العقلية العلمية ، ويحارب العقلية الخرافية التى تصدق أى دعوى تقال لها .. العقلية العلمية التى ترفض الجمود على ما كان عليه الآباء .. العقلية المقلدة : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٢) .. هذا يرفضه القرآن سواء أكان تقليد الآباء أو تقليد السادة والكبراء : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ (٣) .. أو تقليد العوام من الناس : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت » ، إنما يريد من الإنسان أن يفكر وأن يستخدم عقله لا عقل غيره .. يفكر مع صديق له .. أو يفكر مع نفسه .. يخلو بنفسه ويفكر بعيداً عما يسمونه : تأثير العقل الجَمعى ، وهذا ما أشار إليه القرآن حينما قال :

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) الزخرف : ٢٣ (٣) الأحزاب : ٦٧

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ، مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ (١) .. خصلة واحدة : أن تقوموا لله - أى مخلصين فى طلب الحقيقة .. مثنى مع واحد .. أو فرادى مع نفسك .. ثم تتفكروا فى أمر نبوة محمد .. ما بصاحبكم من جنة ، لا يمكن أن يكون مثل هذا الإنسان صاحب الخُلق العظيم مجنوناً .. فكروا فالإسلام يدعو إلى التفكر ويعتبر التفكر عبادة ، وفى القرآن : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) ، و﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) ... إلخ .

فالدعوة إلى التفكر .. إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ : ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ (٤) ، ﴿ قُلْ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٥) .. عملية النظر والتفكر .. دعوة إلى النظر والفكر .. الحملة على التقليد بكل أنواعه ، على الجمود بكل صوره ، الدعوة إلى إقامة البرهان .. القضايا الحسية يستخدم فيها الحس : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ ؟ (٦) .. الشئ الذى لم تشهده لا تحكم به ، القضايا العقلية لا بد فيها من برهان عقلى .. القضايا النقلية والتاريخية لا بد فيها من برهان نقلى : ﴿ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٧) .. هذه هى العقلية العلمية .. العقلية التى ترفض الظنون فى مقام اليقين » .

* *

● اليقين لا الظن :

ويمضى فضيلة الدكتور القرضاوى فى حديثه قائلاً :

« فى مجال تأسيس العقائد والحقائق لا بد من يقين لا يقبل الظن .. ولذلك نجد القرآن حمل على المشركين .. يقول : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً ، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٨) ، حمل على النصارى فى اعتقادهم حول المسيح وصلبه قال : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (٩) .. الظن

---

(١) سبأ : ٤٦ (٢) الأنعام : ٥٠ (٣) يونس : ٢٤
(٤) الأعراف : ١٨٥ (٥) يونس : ١٠١ (٦) الزخرف : ١٩
(٧) الأحقاف : ٤ (٨) يونس : ٣٦ (٩) النساء : ١٥٧

لا يغنى من الحق شيئاً .. رفض اتباع الظنون فى مقام اليقين .. اتباع الأهواء والعواطف .. ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

هذه هى العقلية العلمية ، فإذا كانت العقلانية بهذا المعنى .. هذا المعنى لا نقول يقبله الإسلام بل يرحب به ، بل يدعو إليه بل يعتبره فريضة .. يريد من الإنسان المسلم أن يكون ذا عقلية علمية عقلية ترفض الخرافات وترفض الأباطيل وترفض الأشياء بغير برهان من الله سبحانه وتعالى .. فلا بد من هذه العقلية ولذلك نحن ليس عندنا ما عند أصحاب الأديان الأخرى من مثل قولهم : « اعتقد وأنت أعمى » ، أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » ، أو « إن الجهالة أم التقوى » .. ليس عندنا شئ من هذا ، بل لا بد أن يكون الإيمان عن بيِّنة .. والدعوة على بصيرة .. ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللَّهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ (٤) ، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (٥) .. نريد المسلم الذى يحيا على نور .. لا يعيش فى ظلمات التقليد دون أن يدرى شيئاً من حوله .. يُلقَّن أشياء ولا يعرف أصلها من فصلها .. لا ليس هذا هو الإسلام ..

● وفى الأسبوع القادم نستكمل - بمشيئة الله - حديث فضيلة الدكتور يوسف القرضاوى ..

* * *

---

(١) النجم : ٢٣ (٢) القصص : ٥٠ (٣) هود : ١٧

(٤) يوسف : ١٠٨ (٥) الزمر : ٢٢